المحاضرة الخامسة في مادة السيميولوجيا

طلبة السنة الثالثة ليسانس

شعبة الإعلام والاتصال

المشروع السيميولوجي في القواميس العربية اللسانية والنقدية .

وفي نفس هذه الحقبة التأسيسية للدرس اللساني المعاصر، وفر الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح لطلبته ترجمة مجموعة من المصطلحات اللسانية ضمنها، في قاموس مخطوط لم ينشر، المتكافئات الآتية لمصطلح sémiologie : علم الدلالة ، أو الدلائل اللفظية وخص الصفة sémiologique بما يلي: دلالي أو دلائلي أو وضعي(مدلول عليه بالدلالة اللفظية)[104]. تجمع المقابلات التي ثبتها الأستاذ بين رؤيتين، تترك الأولى الانطباع لدى المتلقي أن السيميولوجيا لا تتجاوز البحث عن الدلالة وهي بهذا المفهوم تصطدم بـ مصطلح **sémantique** بعلم المعاني وهو مفهوم يبتعد ابتعادا كليا عن موضوع السيميولوجيا، أما الرؤية الثانية، فإننا نلمسها في الترجمة الثانية علم الدلائل اللفظية: ويجمع مفهوم هذه الترجمة بين الرؤية السوسيرية والرؤية التراثية. تشدد الأولى على إطلاق تسمية السيميولوجيا على علم العلامات science des signes وينأى هذا المدلول عن الدلائل اللفظية على اعتبار أن السيميولوجيا في رأي سوسير تعنى بالأنظمة الدالة باللفظ وغير اللفظ. وأكبر الظن أن الرؤية الثانية مستمدة من التراث وتحديدا حاشية على شرح مطالع الأنوار للتحتاني الذي حدد الدلالة اللفظية بالدلالة الاتفاقية المتعارف عليها وترتهن في وجودها إلى ثلاثة شروط: "اللفظ وهو نوع من الكيفيات المسموعة، والمعنى الذي جعل اللفظ بإزائه، وإضافة عارضة بينهما هي الوضع، أي جعل اللفظ بإزاء المعنى على أن المخترع قال إذ أطلق هذا اللفظ فافهموا هذا المعنى"[105].

وإذا انتقلنا إلى القاموس الثاني الموسوم بِـ المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية لمحمد رشاد الحمزاوي المنجز في إطار حوليات الجامعة التونسية[106]، فإن الباحث أخضع المصطلح للتعريب: سيميولوجيا، ووضع بين قوسين موضوع هذا العلم: علم العلامات. وقدم تعريفا مقتبسا من **دروس في اللسانيات العامة**: اللغة نظام من العلامات الاصطلاحية ذات الدلالات الاصطلاحية – علم اللغة جزء من علم أعم هو علم العلامات (السيميولوجيا).

ويكفي أن نمعن النظر في المفاهيم المثبتة أعلاه، لنتأكد من أن الباحثين وضعا الترجمتين دون التدقيق لا في مفاهيم المصطلح، ولا في الإنجازات الهامة في الدرس اللساني والسيميولوجي على حد سواء، ولا في

إدراج الترجمة ضمن الإبيستيميا العامة لتلك الحقبة مما أدى إلى حدوث قطيعة مع التطورات المتضمنة ردود الباحثين إزاء المشروع السيميولوجي السوسيري على الأقل تلك المتعلقة بالمشروع البارثي الذي قلب رأسا على عقب الصياغة السوسيرية، ناهيك عن التصورات السيميائية الجديدة التي حددها گريماس وتلامذته. ولهذا الإغفال تداعيات سلبية تجلت بشكل واضح في الخلل المسجل على مستوى التعريف وما يمكن أن يتضمنه من مفاهيم في غاية الأهمية.

وقد وردت ترجمة sémiologie بعلم العلامات[107] في معجم لمصطلحات النقد الحديث لحمادي صمود في حوليات الجامعة التونسية، عمل أنجز في نطاق مركز البحوث الاقتصادية والاجتماعية وبإعانته المادية.

وترجم الأستاذ عبد السلام المسدي، في قاموس اللسانيات مصطلح sémiologie بالعلامية وsémioticiens بالعلاميون ومنها sémiotique بالعلامية[108]. وتظهر قراءته ترجمة واحدة لمصطلحين مختلفين. وفي الأسلوبية والأسلوب للمؤلف نفسه يعدل عن العلامية ويعوضها بعلم العلامات، فيما يخصص للثانية العلامية[109] متحاشيا في ذلك الحديث عن مضامين المصطلحين ومبررات العدول. وينبغي أن نشير في هذا السياق إلى البيبليوغارفيا الثرية المعروضة في نهاية الكتاب والتي تمثل النقاط المعلمية للدراسات الأسلوبية والبنيوية العربية.

وفي معجم الدلائلية فرنسي-عربي، يستعمل الأستاذ التهامي الراجي الهاشمي الدلائلية كمقابل لِـ sémiologie وsémiotique ويرتكز أساسا على القاموس المعقلن في نظرية اللغة لگريماس وكورتيس منطلقا من مدخل سيميائيات sémiotique،مقتبسا منه تعريفا خارجا عن البحث السيميولوجي يدور عموما حول الاستعمالات المختلفة للسيميائيات والمفاهيم التي تعبرها. فحصل الالتباس بين المصطلحين[110]. ويكفي أن نلقي نظرة عجلى على ما جاء في مدخلsémiologie لنتأكد من الفروق الجوهرية القائمة بينه وبين السيميائيات. يستعمل مصطلح **سيميولوجيا** للدلالة على نظرية اللغة وتطبيقاتها على مختلف المجموعات الدالة[111]. تعد السيميائيات نظرية دلالية بامتياز وينحصر اهتمامها، في المقام الأول، في الإبانة ، في شكل بناء مفهومي، عن شروط إدراك المعنى وإنتاجه[112].

وفي معجم اللسانية يخصص الأستاذ بسام بركة **علم الرموز** مقابلا لِـ séméiologie وهي ترجمة تتضارب مع مجموعة من المصطلحات التي وضعها مقابلا لِـ sémiotique**علم الرموز، علم العلامات، سيميائية**(علم يبحث في الرموز اللغوية وغير اللغوية)[113]. إن رؤية بسام لا تختلف عن تلك التي ينخرط فيها التهامي إذ يغدو تداخل المفاهيم في المصطلحين وافتقادهما إلى حجة تسوغ هذه الاستعمالات سمة غالبة مثيرة للبس تجعل تواصل القارئ مع هذه الترجمات مستحيلا. ولنا أن

نتساءل عن رد فعله إذا نقلنا هذه الترجمات على مستوى النصوص المنقولة إلى اللغة العربية. سيلقى نفسه إزاء خطابات متضاربة تعبرها مفاهيم مقطوعة تماما عن السياقات العامة والخاصة التي زرعت فيها. فيتداخل الرمز والعلامة والدليل بالدلائلية والسيميائيات. وهو تداخل لا يترك أي هامش مناورة لتأويل القارئ في سبيل ضبط المفاهيم.

وفي معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لمجدي وهبه وكامل المهندس، ترجم مصطلح semiotic من الإنجليزية إلى العربية بِـ علم العلامات. ويعود فضل التأسيس، من وجهة نظر الباحثين،إلى تشارلز ساندارز بيرس. ويحاول أن يطبق هذا العلم "نظاما منهجيا على نشوء كل ما يمكن أن يسمى بالعلامة أو الإشارة، لغوية كانت أم تصويرية، أم غير ذلك، في المجتمعات البشرية، كما يعالج تقسيم العلامات بما في ذلك الكتابة الخطية، والرموز التعبيرية للصم البكم، وأساليب الأدب والمجاملة، والإشارات العسكرية، وغيرها من آلاف الوسائل التي يعبر بها الإنسان عن نفسه وينقل مراده إلى غيره. ويتناول هذا العلم كذلك تطورات مدلول الإشارة عبر العصور وتغيراتها من منطقة إلى أخرى. كما يدرس كيفية فناء الإشارة أو تحولها إلى غيرها. لذلك يتصل هذا العلم بعلوم أخرى كالمنطق، والتاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم النفس وغيرها. ويمكن إدراج علوم الدلالة المختلفة تحت مفهوم علم العلامات أو علم الإشارات"[(114)] .

وإذا دققنا النظر في هذه التعريف، فسنلاحظ أنه لا يشمل فقط البعد التصنيفي للعلامة عند بورس؛ بل يمتزج أيضا بدون أي مبرر منهجي بالتحديد الذي وضعه فرديناند دي سوسير لموضوع السيميولوجيا المتمثل في أبجدية الصم البكم، والطقوس الرمزية، وأشكال الآداب والإشارات العسكرية وغيرها من الأنظمة الدالة باللسان وغير اللسان. كما أن السيميولوجيا لا تبحث في تاريخ الإشارة ولا تطورات مدلولها أو فنائها أو تحولها إلى غيرها على نحو ما نشهد ذلك عند ميشال بريال في علم الدلالة، بل إنها تدرسها من حيث انتماؤها إلى نظام. ويزداد التعريف غموضا لما نتساءل عن علوم الدلالة الكفيلة بأن تدرج تحت علم العلامات. ما هي هذه العلوم التي تبحث في الدلالة؟ هل يتم الدرس على مستوى الوحدة أم الجملة أم الخطاب؟ لا جواب على هذه الأسئلة لأن التعريف لا يستجيب للمضامين العلمية التي أقرها بورس في تحديد السيميائيات، ولا يحيل القارئ على المفردات العامة للتوجه السيميائي البورسي، ولا إلى الوقائع الاجتماعية باعتبارها أنظمة علامات. حالة صدام آتية أساسا من الخلط بين بورس وسوسير.

وإذا انتقلنا إلى المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، فإنه يعرض ترجمتين مختلفتين سيميولوجيا sémiologie وسيميائية sémiotique تحيلان على كيانين مستقلين ومتباينين. ويشدد المعجم على أن التباشير الأولى للسيميولوجيا باعتبارها علم علامات تجسدت في مشروع فرديناند دي سوسير Ferdinand de Saussure الذي تحدث عن ضرورة إقامة هذا العلم، ويكون موضوعه دراسة

عامة للعلامات، بما فيها اللغوية، داخل الحياة الاجتماعية[115]. فيما ينسب المعجم الموحد السيميائية لشارل سندرس بورس ويتحدد موضوعها بِ "الدراسة العلمية للعلامات تقوم على تمييز خاص بين الإمارة والرمز والأيقونة، ويكمن الاختلاف عن السيميولوجيا في عدم إعطاء الامتياز للغة والمجتمع". يفتقد التعريف للتثبيت التاريخي للمصطلحين ويقدم رؤية جزئية للمشروع السوسيري والبورسي. فهذه الإشارات الخاطفة لا تساعد، إطلاقا، القارئ على الترسيخ المرجعي للمماسرستين السيميولوجية والسيميائية على نحو ما نلقاه في القواميس الأوروبية المتخصصة. ولهذه الطريقة في صناعة القاموس المتخصص تداعيات خطيرة تفقد القارئ القدرة على الإحاطة بالنقاط المعلمية للبحث السيميولوجي والسيميائي الحديث. وتتعقد الأمور أكثر لما يلحق هذا التحديد بتعريف آخر للسيميائية لا يندرج لا في رؤية سوسير، ولا في رؤية بورس " علم عام لدراسة الأنظمة السيميائية بما فيها النصوص الأدبية". إن إقحام حد مفهومي بدون توثيق يعني بكل بساطة تجريد الخطاب القاموسي من تماسكه الذي يعد ضمانة لتجانس المفاهيم.

وإذا استشرنا القواميس الثنائية اللغة، فإن سعيد علوش، في معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، يقترح السيميائية مقابلا لِ sémiotique والسيميولوجيا لِ sémiologie ويخصهما بشروحات جزئية لا تعكس التوجهات العامة للبحوث الدلالية الأوروبية. فالانطلاق من كريستيفا وجماعة (تيل كيل) لتحديد السيميائيات يعطي الانطباع إلى القارئ بأن فضل التأسيس يعود إليهما.

واللافت للانتباه أن سعيد علوش يحتفظ في متن المعجم بالسيميولوجيا كمقابل لـ sémiologie [116]وفي الملحق يترجمها بعلم العلامات[117]. ويمكن أن نلاحظ التضارب على مستوى آخر من المعجم يتجلى في استعمال السيميائية والسيميوتيكية كمقابل لِ sémiotique[118]. وفي موضع آخر من المعجم، يتداخل السيميائي بالدلالي، ويطلق تسمية واحدة(سيميائية) على sémiotique و sémantique. يتحدث علوش عن الشحنة السيميائية وهو يعني بذلك الشحنة الدلالية charge sémantique المحددة بالتعريف الذي وضعه لها گريماس وكورتيس في القاموس على النحو الآتي"ينبغي أن نستعمل **الشحنة الدلالية** للتعبير عن مجموع الاستثمارات الدلالية الكفيلة بأن توزع، أثناء التحقق في اللغة الطبيعية، على مختلف العناصر المشكلة للملفوظ اللساني. وعلى هذا النحو، يمكن أن نعتبر أن الشحنة الدلالية، في جمل مثل " تمتهن الخياطة"، "آن ماري تخيط الآن"، " آن ماري تخيط"، في تنقلها، تظل ثابتة"[110]. يرافق غياب التوثيق والإحالة على القاموس في نص علوش استبعاد مرتكز من المرتكزات الأساسية التي تيسر للقارئ سبل تواصل مع المفاهيم المحملة في التعريف.

وفي موضع آخر يقترح المعجم التأهل[119] مكافئا لِ qualification. إن الجوانب النظرية للمحددات المفهومية التي وضعها للمصطلح عامة جدا، وغامضة ولا تسمح ببناء رؤية منهجية تتحدد عبرها مكونات الفعل الكفيل بإحداث تغيير في الوضعية الاستراتيجية للفاعل. فالتأهل يحمل القارئ على الاعتقاد بأن مسألة امتلاك المواصفات للقيام بالفعل المؤهل محسومة سلفا. وهذا خطأ. ومن هنا وجب الاحتفاظ بالـ تأهيل الذي يتوافق مفهومه مع الدراسات المنجزة في الحكايات الشعبية، وتحديدا البحوث السيميائية التي تستعمله للدلالة على تعلم الفاعل واكتساب التجربة لتحقيق الإنجازات المطلوبة[120]. وسينتج عن هذه الطريقة في الطرح(التي تعد ظاهرة عامة في المشهد السيميائي العربي المعاصر) المتضمنة تغييب مؤسسي البحث السيميائي المعاصر سواء تم ذلك بقصد أو غير قصد، وضع غير محمود العواقب يتسم في جميع الحالات بالفوضى التي أشار إليها الأستاذ محمد البكري في مقدمته. فالتعريفات التي قدمها الأستاذ علوش لا يربطها رابط ولا تصمد أمام التوجهات النظرية العامة في الستينيات والتفاصيل الدقيقة التي تميز بينها. فبارث، وگريماس، وبوتييه وآخرون تحدثوا كلهم عن الدلالة ولكن طريقة الاقتراب منها تختلف من باحث إلى آخر.

أما قاموس المنهل[121]، فقد أعرض عن ترجمة مصطلح sémiotique واكتفى بتعريفها الآتي "نظرية الرمز والعلامات حدد مجالها بالرياضيات"، وفي السياق القاموسي نفسه، ترجم sémiologie بمصطلحين متجاورين: علم الأعراض وعلم دلالات الأمراض. وما يلفت انتباهنا في هذه النقطة من البحث أن القواميس المزدوجة أو الثلاثية اللغة، لا يكلف أصحابها جهد المتابعة النقدية ومواكبة التطور العلمي في مجال اللسانيات والمعجميات وقطاعات معرفية أخرى التي من شأنها أن تعمل على ترقية البحث في الدرس المعجمي المعاصر وتتيح فرصا أكثر للقارئ العربي للاطلاع على المستجدات العلمية في مختلف الميادين المعرفية.

وفي قاموس السبيل[122]، ينزل دانيال ريغ المصطلحين وsémiologie وsémiotique منزلة واحدة ويترجمهما بِ السيميائية دون أن يحدد مفهومها.